الأصالة والتجديد في الثقافة العربية المعاصرة

الدكتور ناصر الدين الأسد
القاهرة

اقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم خلال شهر اكتوبر 1971 بالقاهرة ندوة علمية لدراسة مفهوم الاصالة والتجديد ، وقد ابرز المشرفون عليها وفى طليعتهم صديقنا العلامة الدكتور ناصر الدين اسد مغزى هذا اللقاء فلاحظوا ان المراد بالأصالة ـ عادة ـ اذا وصف بها عمل ثقافي او ادبي ما ـ التميز والتفرد واضافة جديد قيم فى مجال ذلك العمل وان للاصالة معنى آخر يرد من اصل الكلمة اللغوي ، ويدل على ان العمل الثقافي او الأدبي يستمد بعض مقوماته من الاصول اللغوية والفنية والفكرية ـ او الحضارية بوجه عام ـ للغة والامة التي ينتمي اليها هذا العمل ، فلكل أمة « روحها » الخاصة وطابعها المميز اللذان يشيعان فى نتاجها الثقافي مهما تختلف الاشكال او المضامين على مر العصور . ومن تراث كل أمة حية يبقى دائما بعض العناصر الايجابية القادرة على الامتداد عبر العصور ، تربط بين ماضي الامة وحاضرها وتهيىء لثقافتها المعاصرة جذورا تنمو بها و « اصولا » تقوم عليها .

وواضح ان هذا المعنى ليس بعيدا عن المعنى الاول للاصالة وكلاهما يرتبط بالتميز والتفرد ، لكن المعنى الاول يدور فى الغالب حول تقويم اديب او عمل ادبي وبيان وجوه تميزه وامتيازه وما اضافه او ابتكره ، على حين يقصد الاستعمال الثاني الى الكشف عن مقومات ثقافة امة ما ، وبيان تلك العناصر النامية الممتدة مدى العصور لهذه الثقافة ومقدار مرونتها وقدرتها على مواجهة الظروف المتغيرة .

وعلى هذا يمكن ان نقول ان ندوتنا هذه تهدف الى الكشف عن تلك العناصر الباقية فى الثقافة العربية التي يحس العربي من خلالها انه ينتمي الى أمة متميزة فى روحها وطابعها العام ، وان هناك من الوشائج الوجدانية والفكرية ما يربطه بتاريخ هذه الثقافة وببعض وجوه تراثها التي ما زال يجد فيها صدى لشعوره وتفكيره و « روح » حياته بوجه عام . ثم تهدف الندوة بعد هذا الى دراسة التقاء هذه الاصول بحضارة العصر الحديث وبيان ما تم من تفاعل بينهما وما خلقه هذا اللقاء من قضايا ومشكلات اثرت على الادب العربي والثقافة العربية فى اشكالها ومضامينها وطريقة ادراكها للحياة واسلوبها فى التعبير عنها . ومن خلال تلك الدراسة يمكن ان نتبين مواطن السلامة فى هذا اللقاء ومواطن الزلل الناتج احيانا عن فهم « الاصالة » بمعنى الجمود على القديم ، واحيانا عن فهم التجديد بمعنى نبذ أصول الثقافة العربية نبذا تاما واحتضان كل جديد مهما تكن طبيعته ، بكثير من الاسراف والاندفاع .

والحق ان الاصالة ـ كما بين منظمو الندوة ـ لا تعني المحافظة ولا التمسك المطلق بكل التراث . فمن التراث ما أصبح مجرد تاريخ للامة لا يمثل الا حلقة ثابتة فى مكانها من ذلك التاريخ ، ومنه ما يمثل تيارا ناميا ممتدا يعكس روح الامة ويمكن الانتفاع به فى كل العصور . كما ان التجديد لا يعني التسليم المطلق بكل ما يظهر من اتجاهات جديدة فى الادب والثقافة . بل لا بد ان نطرح فى معرض تقويم كل جديد سؤالين ضروريين :

1 ـ هل نبع هذا الجديد من حاجة حقيقية لا بد للمجتمع العربي الحديث من تحققها .

2 ـ هل ارضت النماذج الثقافية او الادبية لهذا الجديد تلك الحاجة .

ومن خلال الجواب عن هذين السؤالين نستطيع ان نمحص الجديد لنعرف أهو استجابة حقيقية لظروف عامة فى المجتمع أم هو نزعات فرعية او تيارات ثانوية او بدعة من البدع . فالاصالة والتجديد ـ بالمعنى السليم لهما ـ ليسا متناقضين بل هما فى الحقيقة متكاملان .

ولا شك ان الندوة لن تكتفي بالرصد التاريخي لمواطن اللقاء بين الاصالة والتجديد ، بل سيكون من اهم اهدافها تقويم تلك المواطن التي تم فيها تفاعل سليم وتوازن معقول بين روح الاصالة وروح المعاصرة، والمواطن التي انحرف فيها اللقاء انحرافا عطل سير التطور او التقدم نتيجة سوء فهم لمعنى الاصالة او لمعنى المعاصرة والتجديد ، حتى يمكن من خلال ذلك الاهتداء الى اسلوب سليم فى مواجهة طبيعة العصر الذي تعيشه الامة العربية من الناحيةالثقافية والادبية.

ويزيد من ضرورة التقويم ومن ضرورة البحث عن اسلم الاساليب لهذه المواجهة ، ان الامة العربية ما زالت تعاني مشكلات اللقاء بين « الاصالة » و « التجديد » فى صورة حادة لم تخفف من حدتها كثيرا عشرات السنوات التي انقضت منذ بدات الامة نهضتها الحديثة . فما زالت الامة حتى الآن تعاني مخاض الحياة العصرية ، وما زال بين المثقفين والادباء خلاف واضح حول مفاهيم الاصالة والتراث والمحافظة والتقاليد والتجديد والعصرية . ويزيد الصورة حدة على حدة اننا ـ رغم انقضاء تلك السنين الطويلة ـ ما زلنا مضطرين الى ان ناخذ الكثير من الاشكال الادبية والمضامين الفكرية من أمم سبقتنا فى مضمار النهضة الحديثة ، وعلينا دائما ان نحاول التوفيق بين الجديد وبين المقومات الاصيلة فى ثقافتنا العربية .

فى مفهوم الثقافة

تتناول « الثقافة » بمعناها الواسع كثيرا من جوانب حياة الامة ، وتشمل : تقاليدها وعقائدها وتراثها وانماط سلوكها واتجاهها الفكرية وفنونها المختلفة من تشكيلية وادائية وشعبية الخ ...

ولما كان بحث كل هذه الميادين فى مؤتمر واحد سيؤدي بالضرورة الى تشعب الموضوعات وتشتت المناقشات ، وحرصا على ان تتاح الفرصة لاعضاء المؤتمر للتركيز على جوانب محددة والتعمق فى بحثها ومناقشتها ، رؤى حصر موضوع المؤتمر فى « الفنون القولية » وحدها دون غيرها من ميادين « الثقافة » على أن تكون بقية الميادين موضوعات بحث فى مؤتمرات قادمة .

وتشمل « الفنون القولية » : الشعر ، والقصة والرواية ، والمسرحية ، والمقال الادبي ، والنقد الادبي، والرحلات والسير ، واللغة من حيث هي أداة التعبير ووسيلة فى هذه الفنون القولية .

ويتوخى المؤتمر من بحثه لموضوعات الاصالة والتجديد فى الفنون القولية المختلفة أن يربط بين هذه الفنون وطبيعة الحياة الغربية ، وان يضعها فى موضعها بين المقومات والميادين الاخرى للثقافة العربية ، دون الاقتصار على النظر اليها بوصفها فنا خالصا مستقلا عن التيارات الحضارية الاخرى .

فى مفهوم « المعاصرة »

اما « المعاصرة » فى عنوان هذا المؤتمر فتتسع لتشمل النهضة الادبية الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حتى وقتنا الحاضر .

— ◆ —

وقد درس المؤتمر النقط الآتية :

1 — مفهوم الاصالة والتجديد والثقافة العربية المعاصرة (عرض لتحديد الدلالات)
2 — خصائص الثقافة العربية ومقوماتها .
3 — موقف الثقافة العربية الحديثة فى مواجهة العصر (عرض وصفي حضاري)
4 — الاصالة والتجديد فى الشعر العربي الحديث.
5 — الاصالة والتجديد فى القصة والرواية .
6 — الاصالة والتجديد فى المسرحية .
7 — الاصالة والتجديد فى المقال الادبي .
8 — الاصالة والتجديد فى النقد الادبي .
9 — الاصالة والتجديد فى الرحلات والسير (التراجم والتراجم الذاتية)
10 — محاضرات وندوات فى اللغة تتناول الموضوعات التالية :

ا ـ المصطلحات والتعريب .
ب ـ اللغة والادب فى مراحل التعليم العام .
ج ـ لغة الاعلام (الصحافة والاذاعة) .